

الفصل السادس إصلاح حال المحاماة

اقتراحات بإصلاح حال المحاماة

في مخطوط عنوانه "وثيقة إنسانية" تاريخه مارس سنة ١٩٤٣ تحدث لطفى جمعة عن ملف القضية رقم ٢ سنة ١٩٤١ تأديب المحامين ضد محامين شقيقين نسب إليهما أنهما بين سنتي ١٩٣٤، ١٩٣٧ قد خدشا شرف طائفتها وحطا من قدرها بقبولهما أجوراً دنينة ينبغي أن يعف عنها مثلها واستعانا على ذلك ببعض محترفي الوساطة الذين يشاطرونهما تلك الأجور الزهيدة وهو ما تحرمه بعض مواد اللائحة الداخلية لنقابة المحامين المصدق عليها في ديسمبر ١٩١٣ والتي أشارت إليها إحدى مواد قانون المحامين رقم ١٣٥ لسنة ١٩٣٩.

وتبين من وقائع القضية أن أحد المحامين المتهمين كان يتقاضى مقدماً أتعاباً مقدارها سبعة قروش ونصف قرش ثم تسلم بعد ذلك مبلغ قرشين ونصف قرش كبقية لتلك الأتعاب ، وقد اعترف للمحامي بتقاضيه هذا القدر وأنه وزميله كانا يمارسان هذا العمل منذ بدء التهمة في سنة ١٩٣٤ إلى مارس سنة ١٩٣٧ ، ثم تساعل لطفى جمعة : كم نقيباً تعاقب على مجلس النقابة وكم وزيراً تولى السلطة في وزارة العدل وكم رئيساً لمحكمة الاستئناف في مدى هذا العقد والسنين ولم يفكر أحد منهم في انتشال حال المهنة من هذه المهواة والوهدة التي أنزلها إليها الفارسان الشقيقان ، وكم من حقوق الضعفاء والفقراء والمستهترين ضاعت على الناس من الحرية والمال على أيدي هذين الأخوين ، وقد كانت جريمتها تتم علناً في أفنية المحاكم وعلى أبواب الجلسات بعلم من جميع القضاة ورؤساء المحاكم والمحامين وموظفي المحاكم والمتقاضين؟

إن العدل قد أهدر دمه وأهريق وحقوق الخلق قد استبيحت في سبيل حصول هذين الأخوين على بضعة قروش، دع عنك ما لحق المحاماة والمحامين في القاهرة من الذل والمهانة والاستخفاف والانحدار التدريجي البطيء حتى خربت بيوت ومكاتب كما تتهدم المعابد والهيكل بجائحة من الطبيعة بقدر من الله عقاباً على المعاصي والذنوب ، إن السكوت عمداً عن هذه الجريمة عشر سنوات جريمة متعمدة للقضاء على تلك المهنة التي صارت في هذا العهد مهانة ومذلة ومدرجة للنزول إلى الدرك الأسفل ... سكتت جهات العدل عشر سنوات وبكمت وخرست وأصيبت بالعمى والصمم لينخر هذا السوس في عظم تلك المهنة ذات الجلال الجميلة المسجاة ، لأن أولى الأمر ونوي الحل والعقد قد أرادوا إضعافها وإفقار دمها حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة في سكون وجلال خليقين بتاريخها العظيم.

إني أحمد الله لأننى اطلعت على هذا السر ووضعيت يدي بالاتفاق المحض وبفعل سير الحوادث ولا دخل لى فيه - على جرثومة البلاء الذي عاناه زملائي الأمجاد ، ومنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر.

إن رداء المحاماة إذا كان في القديم رمزاً للشرف والمهابة والقدرة ومعونة الضعفاء ومكافحة الباطل ونصرة الحق كما علمنا من الذين لبسوه من قبل أمثال سعد زغلول وإبراهيم اللقانى ونصر الدين زغلول والحسينى وأحمد عبد اللطيف وعمر لطفى وأخوه أحمد لطفى وإسكندر عمون وعشرات من معاصريهم وأندادهم وبعض الأحياء أمثال أحمد مصطفى وهيب دوس وغيرهما - فقد صار الرداء على كواهل هذين المحاميين المهتمين علم المهانة والذل والحقارة والاستهتار والدناءة .

إن نقابة المحامين المفروض فيها أنها تسهر على تنقية المحاماة وتطهيرها وتنظيفها هى التى ساعدت على تشجيع هذه الأدران وتنميتها وتقويتها بالإهمال والسكوت عنها وغض الطرف وصم الأذن حتى استفحل الشر وكبر

الخطب واتسع الفتق على الرائق لانشغال رؤسائها بأنفسهم ومصالحهم ومنافعهم المادية ورغبة كل فرد منهم أن يحصل على أكبر قدر من الثروة وأكثر عدد من القضايا المهمة ولا يباليون بما يحدث لسواهم ، وقد جعلوا هذه النقابة من سنة ١٩٢٠ إلى هذه الساعة (مارس سنة ١٩٤٣) ميداناً للتنافس السياسى ومسرحاً لسيادة الأحزاب ومعتركاً لأهل النفوذ من الرؤساء والأعضاء فيقفزون منها إلى مناصب الوزارة ووظائف القضاء .

وكان من الطبيعى بعد ذلك أن يتساءل لطفى جمعه : ماذا يظن أن تكون أسباب انهيار المحاماة فى مصر ؟ وما هى وسائل إصلاحها ؟
يجيب لطفى جمعه على هذا التساؤل بقوله :

يجب على أن أبحث حقيقة فى أسباب انحطاط المحاماة :

فأولاً : أن هذه المهنة دخيلة على البلاد وهى تقتضى جملة شروط فيمن يمارسها كالاستعداد الفطرى لها والذى يتوافر لأصحاب الصحة الجيدة جداً والعقول الراجحة جداً والفصاحة والبلاغة والخطابة والأخلاق القويمة وحب العدل وقناعة النفس إما بثروة أصيلة وإما بشرف مكتسب يحول دون صاحبها والانحطاط ، وعلم واسع بالقانون وثقافة واسعة فى كل شئ .

ثانياً : أنه وإن يكن المصريون لهم ذلاقة لسنة وقدرة على الكلام والخطابة بصفة عامة ، إلا أن معظم الصفات المذكورة أعلاه تنقص المحامين .
ثالثاً : دخل هذه الصناعة أكبر عدد ممن ليس لهم استعداد فطرى ولا أخلاق .
رابعاً : أن الروابط المعنوية والأدبية التى ترقى الهيئات معدومة بسبب المنافسة والجهل المتفشى .

خامساً : معظمهم متكالب على المال ، وكثير منهم ليس عندهم فكرة الضمير ولا للكرامة الشخصية .

سادساً : أن الوسط القضائي عند القضاة أنفسهم قد هبط والمرافعات نزلت

درجتها والقضايا المهمة التي تشجع المحامي نادرة .

سابعاً : فقر الكثرة الساحقة عند المحامين أدى إلى قلة أرزاقهم فتحولوا إلى

عمال عقليين يربحون لسد رمقهم ورمق عائلاتهم .

ثامناً : أن المبتدئين منهم لا يعرفون سابقهم ، وإذا رأوهم لا يرون فيهم إلا

مزاحمين متقدمين في السن فيتمنون زوالهم حتى إن واحداً من المنتسبين

إلى المحاماة حمل على المحامين الشيوخ حملة نكراء في ورقة سماها

تقريباً باقتراح إصلاح المحاماة ، نسي " عمود الخشب " الذي في

عينيه وذكر " الذرة " التي في عين الآخرين وهي الشيوخة والعجز

عن العمل .

تاسعاً : أن انتشار الروح المادية في مصر صبغ هذه الصناعة بهذا اللون ،

فذهبت بهجتها وعظمتها .

عاشرأ : أن كثيراً من القضاة يحتقرون المحامين الجهلاء ويحسدون الأكفاء ،

وقد درج بعضهم على الإساءة إلى الجميع وقد انتزعوا من غرورهم

وثبات مراكزهم وانتظام أرزاقهم طمأنينة أنستهم آدابهم المحتمة نحو

المحامين .

حادى عشر : اشتهر كثير من كبار المحامين بفساد الذمة .

اثنا عشر : المبتدئون لا يقتدون ولا يحتنون بفطاحل المحامين ممن يدربونهم

على حسن الذمة وإتقان العمل .

ثالث عشر : كل شئ في مصر قد انحط بفعل الاحتلال والأحزاب فتبعته هذه

الصناعة بحكم التأثير العام .

رابع عشر : لا يدخل كليات الحقوق في العهد الأخير إلا الذين لم يتمكنوا من

دخول الكليات الأخرى ، وإذا تخرجوا فيها فلا يلجأ إلى المحاماة إلا

الذين لم يتمكنوا من دخول وظائف الحكومة .

خامس عشر : أن النقابة التي كان يظن فيها الخير والعمل على تقدم هذه الصناعة ظهر من سنة ١٩٢٠ أنها هيئة لحماية أعضائها وجلب الوظائف والمنافع لأنفسهم ويعتبرون العمل للمحاماة سخرة ويعملون هم أنفسهم على الحط من شأن المحاماة .

سادس عشر : أن الحكومة بصفة عامة والسلطات السائدة في مصر عملت وتعمل على مناهضة هذه المهنة لأنها قاومت الرجال الذين قاموا بالثورات والاضطرابات منذ سنة ١٩١٩ إلى الآن ، وأن الحركة الوطنية من عهد مصطفى كامل قامت على كواهلهم ، فوجب إضعاف هذه الكواهل وقد نجحوا .

سابع عشر : درج بعض رجال القضاء والنيابة بجميع درجاتهما على للتظاهر بالترفع عن المحامين في علاقتهم للخاصة حتى ولو كان هؤلاء القضاة والنواب ممن لا يدنون المحامي أخلاقاً ، وقد سرى هذا المسلك إلى عروق موظفي المحاكم تقليداً وتبعاً لرؤسائهم ، فشعر المحامون بشئ من هوان شأنهم مما يعوقهم عن شعور العظمة المؤدى للنجاح .

ثامن عشر : علاقة المحامين بموكليهم ، ذلك أن بعض الموكلين سواء أكانوا من المتهمين أو من المماطلين قد نتج عن سوء أخلاقهم فى معاملة المحامين بأكل حقوقهم والشح عليهم والكذب فى أخبارهم - أن ساءت العلاقة بين المحامين وموكليهم .

تاسع عشر : طبقة الموظفين عند المحامين من وكلاء وكتبة وخدم والمندسين فى أوساطهم من السماسرة .

هذه كلها أسباب مكدرة لأزمة المحاماة فى مصر ولكنها حقيقة وذات أثر فعال فيما انتهت إليه المهنة فى هذه الأيام .

خاتمة

وبعد ...

فهذه الصفحات تتحدث عن جانب من جوانب سيرة واحد من رواد المحاماة الذين أسهموا في إثراء هذه المهنة الشريفة الجليلة بمراعاتهم الشيقة وبحوثهم القانونية والفقهية المتعمقة وشاركوا في النصف الأول من القرن العشرين في وضع تقاليدھا وإرساء أخلاقياتها وتثبيت أعرافها ، وأحبوا هذه الصنعة بكل جوارحهم وأخلصوا لها الإخلاص كله ، ولم يبخلوا على المبتدئين فيها بالنصح والإرشاد والتوجيه ، ولم يترددوا في الدفاع عنها وإبداء الاقتراحات الكفيلة بالنهضة بها .

رحم الله لطفى جمعة إزاء ما قدم لمهنة المحاماة من خدمات وما بذل فيها من جهود ، وإننى أرجو أن أكون قد وفقت إلى إبرازها لتكون علامات على الطريق ونكرى لأجيال قادمة من شباب المحامين، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

رابع لطفى جمعة

٢١ ش أمين الخولى - مصر الجديدة

القاهرة

مصر الجديدة فى ٢٠٠٤/١/١٨